قصة قصيرة: الممثلة

حلمي صابر - جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ

____



خرج " نيل " البخيل صاحب المتجر مسرعا إلى الشارع ليلقى الفتاة الصغيرة فيونا التي كانت واقفة خلف زجاج متجره أمام قسم القهوة. وقف عندها ولم يحيِّها ؛ فبخْله سَبَقَهُ عن الترحيب بها : فتاتي الصغيرة " فيونا " وعدتني والدتك الفنانة الشهيرة شِيلا بقطعة كيك للمتجر ؟ . وقبل أن تجيبه فيونا، ألتفتَ إليها المشردان الواقفان أمام المتجر ، وقاطعهما المشرد الغريب: وأنا أريد قطعة كيك أيضا أيتها الفتاة الجميلة.

أجابت فيونا بعدَ أن غيرتْ رغبتها عن دخول المتجر: معذرة أنا ذاهبة إلى المدرسة الآن سيد نيل، ولا استطيعُ أن أجيءَ بقطعة الكيك لأي أحد منكما. قال لها صاحب الجاكيت الممزق الغريب: حسنا يا فتاتي بعد رجوعك من المدرسة تعطينا قطعة الكيك. فأجابته: لا أعدكَ بشيء، عليَّ أن استئذن والدتي أولا.

نزل سائق سيارة البنتلي الفاخرة وفتح بابها للفتاة الصغيرة لتركب ، ودَفَع السائقُ بيدِهِ الرجلَ الغريبَ الذي اقترب من الفتاة الصغيرة، فسقط الغريب أرضا واندلقَ الشاي على الأرض وسقط كوبه الورقي مترنحا يمينا وشمالا. نظر إلى السيدة التي كانت مع فيونا في السيارة رافعا صوته: من أجل كعكة صغيرة دفعني سائقك ولم تعترضي ولم تعاتبيه ؟!. كيف أسقطَ سائقكِ رجلا عجوزًا على الأرض ؟! ، ألتفتتْ والدة الفتاة إلى الصوت ورأتْ المشرد الآخر مدَّ يده إلى صاحبه الغريب ليرفعه عن الأرض .

اقتربَ الغريبُ عند نافذة السيارة وهو ينفض جانبيه، وعاتب بصوت هادئ السيدة: أمَا كان لهذا الوجهِ الجميل، عطفٌ جميل ؟!. واصل عتابه: انظري اندلق كوب الشاي وليس معي غيره، عليك بتعويض ذلك.
نزلت السيدة من السيارة وكانت فتاتها الصغيرة الجميلة فيونا بجوارها: اعتذرُ لك وسيعتذر إليك سائقي وسأعوضك عن كوبك المندلق.

شكرا لك أنتِ سيدةٌ كريمة. وماذا عن الكعك ؟ . سألته السيدة : أيةُ كعك ؟. أخبرنا نيل بأنك وعدتهِ بكعك. ابتسمتْ مجاملةً، حسنا ولكَ قطعة كعك أيضا.
سألته بلطف وهي ترى حالته الرثة: هل يمكنني مساعدتك ؟ أجابها الغريب: لا ... لا وشكرا لا احتاج إلى مساعدة. أراد أن يقول شيئا لكنه صمت . نظرَ في عينيها وأراد أن يخبرها عن عينيها لكنه ترك المكان والحوار بصمتٍ وبخاطرٍ مجروح ويداه في جيبي الجاكيت يدفعهما إلى أسفل .

لحقهُ نيل بكوب الشاي الجديد ولم يفوِّت المناسبة : ربحتَ كوبا بيورو من السيدة شِيلا عوضا عن كوب النصف يورو. قال له الغريب: أظنك تراه فيَّ خسارةً!، المهمُ أنك ربحتَ يورو جديدا يا نيل.
قبل مجيء فيونا، كان نيل مع المشردين في نزاع شديد. قال المشرد إن لم تستطع أنْ تدفعَ يورو واحدا ، فليشاركْكَ أحد فيه. أنتَ قلتَ لي هذا قبل قليل يا نيل. أليس كذلك ؟ وهذا صاحبي الغريب أكلَ اليورو.

وقد نظر إليهما نيل غاضب العينين ضائقا بهما كارها مجيئهما. والذي خفَّف من ضيقه بهما، عدم وجود الموظفين والموظفات الذين يفطرون في متجره. قال نيل: واحد منكما يكفي ليثير جنوني، فكيف إذا اجتمعتما.
قال الغريب: هوِّنْ عليك يا نيل سنشرب الشاي في الخارج، ولن نشربه وأنت تنظر إلينا. ردَّ نيل ضَجِرا : هذا أفضل .

هرول سائق السيدة إلى الغريب ، وناوله عشرين يورو لكنه رفضَ أخذها ولم يقبلها. ومضى في سبيله. سيدتي : هذا فقير لكنه ليس من المتشردين . كان ذلك تعليق إدوارد السائق على رفض الغريب للعشرين يورو. المتشرد يا سيدتي ينظر إلى يديك لا إلى عينيكِ منتظرا من اليدين عطاءً. وهذا الرجل لم ينظر إلى عيني ولا إلى يدي.

وفي عصر أحد الأيام كانت فيونا الفتاة الصغيرة مع والدتها شِيلا يعبران الحي الصيني في برشلونة فلمحت فيونا الرجل العجوز. ماما ماما انظري الرجل العجوز. ألتفتت الأم : فعلا إنه هو، وطلبت من سائقها أن يتوقف بمحاذاته. فتحت له باب السيارة : تفضل أيها السيد لنوصلك ؟. لم يأبهْ للصوت وللدعوة ظانا أن النداء ليس له.

نزلت فيونا ووقفت أمامه وقالت له : معذرة تفضل معنا في السيارة لنوصلك. نزل صاحب الجاكيت على ركبتيه وصار وجهه إزاء وجه الفتاة: يا فتاتي الجميلة أنا لست فقيرا ولا متشردا. سمعت الأم كلامه ولم يعلم بأنها كانت خلفه تسمعه. وسأل الفتاة الصغيرة: هل عندك يورو واحدا لأشرب شايا بالحليب؟ نعم عندي . لكن لماذا لا تجيء معنا ونقدم لك الشاي والحليب بالبيت ؟. رأت الأم بأنه من المجازفة استقبال رجلٍ غريبا. مدَّتْ الأمُ يدها باليورو لكنه رفضه. معذرة يا سيدتي: أردتُ أن أعلِّمَ الفتاة الصغيرة العطاءَ لمن طلبه وسأله. شكرا في جيبي يورو ويكفيني اليوم.

قالت له شِيلا: هذه المرة الثانية التي ترفض فيه عرضا !. معذرة، أنا مستعجلة الآن واحتاج إلى شخص ليعمل في البيت ، هل توافق ؟ وهذا عنواننا وسأنتظرك غدا الساعة الرابعة والنصف .
الغريب: معذرة لا أريد العنوان، ولكن ليجيء السائق الذي دفعني عند قهوة نيل ويأخذني . وممكن أنتظركما هنا حتى تنتهيا من شغلكما وتأخذاني معكما.
شيلا: قد نتأخر عليك ساعتين أو ثلاث.
أجابها الغريب بدون تفكير : لا تلقِ بالا، فأمس واليوم وغدا كلها سواء. ولست مستعجلا على شيء.
شيلا: إذن انتظرنا هنا الساعة الواحدة والنصف، وسألته شِيلا أليس معك جوالا لنتصل عليك ؟. أدخل يديه في جيوبه وأخرجها فارغة : كما ترين أنا رجل بلا اتصالات !.

إذن موعدنا هنا أمام هذه البقالة الصينية سيكون موعدنا الواحدة والنصف. وأضافت شيلا: إذا لم أجيء فسيكون السائق عندك.

وعاجلها بجوابه: من كان له موعد مع هذا الجمال سينتظر الساعاتِ والأيام. قالت له : أراكَ تحسنُ الكلام !. أجابها : وهل من رأى هذا الجمالَ استطاعَ الصمت !. قالت فيونا ببراءة طفولتها :أرجوك كنْ هنا في الموعد ؛ أنتَ رجلٌ طيب .

الغريب : كما تأمرين ، ويصعب عليَّ رفض طلبك أيتها الأميرة الجميلة.

لم تجئ السيدة وابنتها، إنما جاء السائق فأخذه إلى الفيلا الكبيرة التي حديقتها أضعاف حجم البيت. لم يكونا في البيت ولكنهما جاءا بعده بقليل. نزلت فيونا بسرعة ورأت العجوز في الحديقة يتمشى بين الأشجار ويغرد لذلك العصفور وينادي ذلك الغراب، ويغير صوته إلى صوت القطة. وكأن الطيور على غير عادتها بهذا الضيف الجديد. واجتمعت القطتان الصغيرتان حوله مواءً. وحرك أصابعه تحت رقبة قطة، ومسح الأخرى على ظهرها.

اقتربت فيونا منه، ووضع على رأسه قناع رأس الأسد، وجلس على ركبتيه ويديه، وحرك رأسه تحريكة الأسد. أنا الأسد من سيحميك يا أميرة القصر ؟. ضحكت ووضعت يديها على فمها من السرور وركضت إلى غرفتها ورجعت متنكرةً كاملا بلباس الأسد، وجلست على يديها وركبتيها وقالت: أيها الأسد العجوز جاء الأسد القوي من سيحميك مني ؟. خلع تنكره وضحك من قلبه وضحكا معا.

هل تأذنين لي بطلب أيتها الجميلة الصغيرة ؟: تفضل أجابته فيونا. ضميني إلى صدرك ، ليضمني صدرك البريء؛ أحتاج إلى حنان كبير من صدرك الصغير . لفَّتْ الصغيرةُ ذراعيها حول رقبته بتلقائية، وانحدرتْ دمعاتٌ من عينيه . نظرت إليه فيونا وسألته : لِمَ تبكي ؟

لست أبكي يا صغيرتي، هذه دموع فرح؛ أنا سعيد جدا بأنك ضممتني. رفع يديها بلطف عنه ومسح دموعه بمنديل في جيبه. قالت فيونا أنا أحبك كثيرا. فصمت متأملا وجهها الجميل الصادق البريء. هذا الذي كان ينقصني أيها الملاك الجميل.

كانت الأم قريبة منهم ترقب وتسمع كل هذا باندهاش أن أحبته الصغيرة وأخبرته بذلك بثوانٍ وهي صبية صعبة التعامل . أمسكت بيده وقالت تعال أريك غرفتي. تدخلت الأم وقالت ليس الوقت مناسبا يا فيونا ، فقال الرجل ليكن مرة أخرى يا أميرتي الصغيرة؛ فلكي أدخل غرفتك يجب أن أحضر هدية، وليس معي هدية الآن. وعلينا طاعة والدتك. قالت فيونا متحسرة: كما تحب، شكرا لا أريد هدية ؛ غرفتي مليئة بالهدايا.

جاءت رئيسة الخدم أمانويل: نعم سيدتي ؟ لو سمحتي نريد حليبا بالشاي لضيفنا. جلسوا حول المدفأة داخل القصر التي لم يكن فيها حطبا لأن الجو ربيع. أكثرت شِيلا الأسئلة لتعرف الرجل . سألته: اسمه وحياته وعمله وأسرته وغير ذلك من أين جاء وأين ولد، ولماذا هو هنا في برشلونة. لكنه استطاع أن يتهرب من جميع الإجابات وقال لها أخيرا: سيدة شِيلا لا تستعجلي قد تعرفين كل شيء في الوقت المناسب، لكنني الآن لا أحب أحدا أن يعرفني. فيوم ويومان ستنقضي ولن نلتقي. فالأمر سيان جهلتي أم علمتي. شرب الشاي بالحليب ونعس قليلا ثم أفاق عفوا. لم أنم من البارحة. قالت فيونا لوالدتها : لينم عندنا ماما ؟.

شعرت الأم بالحرج كيف ينام وأين ينام. لم تترك فيونا الفرصة، فأعقبت لينم في بيتي الخشبي على الشجرة. قاطع الغريب: أين هذا البيت يا بنيتي لأغفوَ ساعة أو ساعتين ثم أغادر ؟. ألتفت إلى السيدة وقال: لو كنتم تعرفونني منذو خمسة أعوام، هل سأكون غريبا لديكم كما أنا اليوم ؟
بالطبع لا، أجابته شيلا. أضاف: حسنا فلتفترضي بأنني فعلا أعرفكم منذو خمس سنوات وعامليني على هذه المعرفة ، ولا حاجة لأن تنقضي خمس سنوات حتى تسمحي لي بالنوم الآن. لم يدعها تفكر: لا أظنك تتوقعي ضررا من رجل مثلي ومن كان في عمري. إذا طفلة صغيرة لم تخف مني !، فهل سيخاف مني الكبير ؟!.

ابتسمت السيدة: حسنا لنعتبرها خمس سنوات مضت على صداقتك. فأهلا ومرحبا بك. وستريك أمانويل مكان نومك الليلة وستعطيك ما يلزمك للنوم. شكرا جزيلا أيتها السيدة الكريمة. أخذت شِيلا احتياطها بأن وضعت حارسا مخفيا يراقبه طوال الليل لئلا يبدر من العجوز مالا يتوقع. ليس الكلام الجميل وحده معيارا لحقائق الناس.

استغرق الغريب مباشرة في النوم عندما وضع رأسه على الوسادة، وفي الليل سمع حركة، ألتفت يمينا وشمالا ونظر من فتحات الخشب إلى بركة سباحة أمامه. ورأى والدة فيونا بلباس السباحة في البركة لوحدها. غطى عينيه بسرعة. هذا ليس مكانا مريحا . عليَّ أن أغادر ؛ هذا مكان صعب . وتسلل بخفية من البيت الخشبي متوجها إلى باب القصر الرئيس. لحقه الحارس المتخفي حتى التقيا عند الباب. وكان حارس القصر أيضا معهما. افتح الباب أريد أن ألحق بالقطار قبل مغادرته. أنت ضيف السيدة ونحن سنوصلك. شكرا، لا أريد أحدا أن يوصلني. أرجوك افتح الباب بسرعة. حسنا تفضل. ولىَّ هاربا.
وابتعد كثيرا عن القصر، ثم جلس على رصيف ليستريح. إنني لا أحب أن أرى المرأة بذلك اللباس الذي لا يكون إلا في غرفة نوم أو غرفة زوج. هوس الحرية الفردية الذي طغى على بلادنا أفسد كثيرا من الأخلاق. كل فرد يفعل ما يحلو له متى ما شاء وأينما شاء. إنه وهم الحرية.

أفاقت فيونا من النوم وأسرعت غسل وجهها لتنزل إلى بيتها الخشبي. وجدته فارغا !. سألت خدم القصر عن الغريب، وأخبروها بأنه خرج في الليل. رجعت إلى البيت الخشبي ألتفتت يمينا وشمالا لتتأكد بأنه غير موجود. من وقْعِ الصدمة لم تُرِد أن تصدق بأنه ذهب !.

نزلت السيدة إلى طاولة الطعام لفطورها المعتاد في الوقت المعتاد الساعة التاسعة. وجاءتها فيونا مهرولة: ماما ماما الغريب ليس هنا، غادر في الليل. قد يكون في مكان ما في الحديقة فأنت تعرفينه بأنه غريب الأطوار. أقول لك يا أمي هو ليس موجودا. قال الحراس بأنه خرج ليلا ، ورفض مساعدتهم في توصيله.
هذا أمر غريب فعلا. قالته شِيلا لابنتها. هل أنت حزينة يا فتاتي الجميلة لأنه غادر ؟ نعم أنا حزينة جدا لذهابه فهو رجل لطيف جدا ويحتاج إلى من يعتني به. حسنا يا جميلتي وكيف أساعدك في حل مشكلتك ؟ نبحث عنه. موافقة نبحث عنه. هل سنجده يا أمي ؟ لست واثقة من الإجابة، لكننا سنحاول أقصى جهدنا. لكننا لا نعرف عنه شيئا. بحثوا عنه ولم يجدوه. حاولوا وسألوا ذهبوا إلى قهوة نيل، سألوا عنه، يعرفون شكله لكنهم لا يعرفون اسمه ولا شيئا عنه. أمر غريب في هذا الرجل: حضوره وغيابه غريب ، أنا أريده لابنتي. مضت الأيام والأم منشغلة بتصوير فيلمها الجديد، والفتاة منشغلة بمدرستها المملة.

بعد عدة أسابيع بينما كانت السيارة تقل شِيلا وابنتها في الحي الصيني في برشلونة، كانت فيونا تلصق فمها ويديها على نافذة السيارة خلف مقعد السائق : توقفْ .. توقفْ. وفتحت باب السيارة وركضت مسرعةً إلى الرجل الغريب، اندهشَ لرؤيتها، لم يستطع التحرك أخذها وتلقفها وضمها : أيها الصدر الحنون. لوَّح بها في الهواء وأنزلها بلطف على الأرض. ثم جلس على ركبتيه في الشارع ووضع يديه على الأرض ولبس رأس الأسد : من يحميك مني أيتها الأميرة الصغيرة. لم تخفْ، وضمته وهي تضحك. شاهدت الأم كل هذا في اندهاش. إنَّ صغيرتي مسرورة جدا بهذا الغريب.

عاتبته الصغيرة: أين كنت ؟! كنا نبحث عنك، وفشلنا في العثور عليك. أعتذر إليك أميرتي الصغيرة. كنت مضطرا إلى الذهاب لإنجاز بعض الأمور المهمة المتأخرة. أخذ فيونا بيده واقترب من السيارة: هل أدعوكم إلى الفطور ؟ وأنتِ سيدة شِيلا تدفعين الفاتورة ؟. أجابت: بكل سرور. وابتدرت فيونا والدتها: هل سيذهب معنا إلى البيت يا أمي ؟ قالت: ليس عندي مانع إذا وافق على المجيء معنا.

ركب معهم سيارتهم وجلس عند طرف الباب ، وفيونا بجواره يحدثها : اعتذر لك يا ملاكي الصغير: لم استطع البقاء تلك الليلة عندكم لأن الرجل الكريم يا بنيتي يرضى ببعض الذل، نعم يرضى ببعضه مقهورا مجبورا، لكنه

لا يرض بالذل كله. أخبرته فيونا ببراءةٍ : عفوا لم أفهم ما قلت !. أحتاج أن أعلمك أمورا في الحياة يا فتاتي لا تتعلمينها في المدرسة. ثم سألها : أنتِ بأية صف ؟
فيونا : الصف الثالث.
الغريب : وماذا تدرسين ؟ أجابته : العلوم واللغة والرياضيات والرسم ، وأضافت فيونا وصفا لمشاعرها إنني أكره المدرسة. نظر إليها الغريب: لستِ أولَّ من قالها، أغلبهم هكذا !.

من اليوم، أنا سأعلمك وسأدرسك وستكونين الأولى على برشلونة كلها. هل تقبلين التحدي ؟ نعم أقبله إذا أنت تدرسني. نعم أدرسك ولا غيري. سيدة شِيلا عليك أن تضعي في ميزانيتك خمسين يورو راتبا لي لكل شهر لتعليم فيونا . أخرجت محفظتها تفضل: هذه خمسين يورو مقدما.

طلب الغريب من إدوارد السائق أن يمر على مكتبة حلبي في شارع الجيزة ببرشلونة. هل تنزلين معنا سيدتي ؟ لا تقل سيدتي. سيكون صعبا النزول سيضايقونكم الناس بسببي. لكن سينزل معكم إدوارد لحمل الأغراض.

فيونا لنذهب إلى قسم الرسم أولا: سؤال يا فيونا ؟ ما الفرق بين الألوان الزيتية والمائية ؟ لا أعرف. حسنا ولا يهمك سأخبرك. أية فُرش الرسم تفضلين ؟ ليس عندي أية تفضيل. سنضطر إلى شراء كل هذا لتعرفي الفرق. في مكتبة حلبي، من الألوان الجيدة شركة ونزر نيوتن. لن تجدي في مكتبة حلبي ألوان شنهاي الكورية، أو دانيل سميث الأمريكية، لأنها غالية بعض الشيء. عليَّ أن أخاطب إدارة المكتبة . للأسف لا يكترث الناس للجودة في الألوان.

اسمعي أيتها الشقراء الصغيرة سأناديك فوني وأنتِ ناديني لون. لأول مرة أعرف اسمك. نحتاج بعض الأوراق. وبعض الأقلام الملونة للرياضيات، وبعض الكتب عن الحيوانات والنباتات.

سأل السائق: من سيدفع قيمة كل هذا ؟
أجابه الغريب ببداهةٍ : أنت يا إدوارد بالتأكيد !.
متعجبا : مستحيل.

دفع الغريب ثلاثمئة وعشرين يورو ببطاقته المصرفية. قالت له فيونا: لا تقلق سيد لون، سأعطيك من مدخراتي عندي في حصالتي خمسمائة يورو . لا تقولي سيدي قولي لون فقط. حسنا سيد لون أنت رجل لطيف وصديقي الكبير، وستعيش معنا في البيت لأنك معلمي.

نزل على ركبتيه وصار وجهه تلقاء فيونا أنت فتاة جميلة جدا، ورقيقة جدا، ولطيفة جدا. أحب عينيك التي بلون الزيتون. لون عينيك كأنه شاطئ جزيرة. أرأيت الألوان يا فوني. هذا أول درس في الرسم: الألوان من حولنا. اقتربت فيونا من مرآة باب سيارتهم الجانبية لتنظر في لون عينيها الزيتوني.

رأت الأم الغريب ممسكا بيد ابنتها في باحة مكتبة حلبي : انظري يا فوني إلى السماء هناك في الأفق. انظري إليَّ: الأفق هو الخط الذي تلتقي فيه السماء والأرض. انظري هذه السماء، وهذه الأرض. هذا هو الأفق.
حسنا سيد لون. عرفت الأفق. فيونا لا تقولي سيد. وبادرته ككل مرة: حسنا سيد لون.
لماذا سألتكِ عن الأفق؟ أجابته: لا ادري. لكي نرى تغير الألوان يا زيتونة العينين.

سأل الغريب فيونا : من أين جهة تخرج الشمس ؟
فيونا : لا أعرف .
الغريب: هذه المشكلة !. أنتم لا تتعلمون في المدرسة. هيَّا .. هيَّا تأخرنا على والدتك.

دعني أساعدك يا إدوارد سأحمل هذه الأكياس.
إدوارد : أرجوك لا تحرجني مع سيدتي.
الغريب : لا عليك من سيدتك. أنا رئيسك وسأحميك لا تقلق أنتَ في أيدٍ أمينة معي. حمل الغريب أغلب الأكياس وأخذ إدوارد الكيس الصغير.

لم تستطع شِيلا أن تخفي علامات عدم رضا وجهها مما رأت ؟!. نظر إدوارد إلى سيدته صامتا وقال لها : هو أجبرني على ذلك ولست براض عنه ؛ فأنا أحترم ضيوفك كما علمتني . ألتفت إدوارد إلى الغريب ورفع حاجبي عينيه : كأنه يقول أرأيت عتاب السيدة.
قال الغريب للسيدة : سأعطيك الفواتير لاحقا سيدتي. حسنا تفعل ردت شِيلا. أسند رأسه ملتفتا إلى النافذة، وقال لفيونا : انظري انعكاس داخل السيارة على النافذة . عيوننا تنظر خارج السيارة ، لكننا على زجاج النافذة نرى داخلها . إننا نبصر أنفسنا في الداخل بالنظر إلى الخارج. هذا مفهوم جميل.

والتفتَ ليحدث فيونا، فالتقت عيناه بعيني شِيلا التي كانت تنظر إليه. سيدتي إنَّ في عينيك كلامٌ صامت. لا تقلقي. الأيام ستتكلم، تحتاج إلى من يسمعها فقط. ابنتك أخذت لون عينيك الزيتوني الجميل ، والغريبُ أنكِ أسبانية واسمك استكلنديا . صمتت شيلا وقالت لنفسها : فعلاً كما قال إدوارد هذا ليس مشرد فقير.

مضت الأيام والغريب يعلم الفتاة التي صارت تحبُ الذهاب إلى المدرسة ، وأحبت كل المواد. وصارت ترسم في بيتها الخشبي. بعد مضي عدة أشهر ، لاحظن معلمات فيونا تغيرها وتفوقها. بل صارت تمثل موضوعات القراءة مع زميلاتها في الفصل. مرة أرنبا ، ومرة زهرة ، ومرة بنتا فقيرة ، ومرة فتاة مغرورة. صارت القراءة مصدرا لتغيير صفات الفتيات، وصرن يتفاعلن مع الدرس وصارت أسئلة الدرس في الصفحة الأخيرة سهلةً . وصار التعليمُ حياةً وليس معلومات فقط.

وهكذا في مادة الرسم: بدأن يفهمن ما اللون، ومعنى اللون، وألوان الطبيعة، والضوء والظل. وأن ألوان السماء ضوء . وليس من أحجارٍ صلبة . تعلموا دمج الألوان وتدرجها . حدَّث الغريب فيونا عن ألوان الناس وتلونهم. أنت لا تحتاج أن تكون رساما لترسم. الرسم فكرة. قالت فيونا لزميلتها في الفصل: انظري يا إليدا – صاحبتها الفرنسية - إلى ملمس هذه الزهرة، شمي رائحتها. صارت فيونا مبادرةً في تعليم صاحباتها، وشاركتهم معلوماتها الجديدة بأدب وتواضع. التعلم يجعلك متواضعا. نحن لا نتعلم معلومات فقط يا فيونا . هذه المعرفة تجعلنا أكثر أدبا وتواضعا للتعلم وفي التعليم أيضا. قال لها ذلك معلمها الجديد، وجعلها تمارسه .

وفي حصة العلوم تعلمن التزامن في الخلْق. ووظيفة كل جزء في الجسم وعلاقته بالأجزاء الأخرى. ذهبوا إلى حديقة الحيوان ليروا الفروق بينها. صارت الحياة مختلفة على الطالبات خاصة اللاتي في فصل فيونا. ومع مضي الوقت، وصارت المدرسة أكثر مرحا وبهجة وسرورا . حتى صار لورد حديقة المدرسة وأزهارها معنى جديدا.

الجميع في عمل. وكذلك شِيلا صار أداؤها يتحسن في الأفلام، وصارت أعمق في أداء دورها، لانصرافها التام إلى شغلها. حجم الوقت الذي كانت تأخذه فيونا ، صار على المعلم الجديد. قال الغريب مرةً لشيلا : الفن رسالة ، وحدثها عن رسالة الفن وأهميته. المسرح لتغيير الناس. حتى لو قدمت عرضا جادا ستقبل الناس. ليس الفن هزؤا وسخرية. الفن رسالة تعبير للتغيير . ليؤكد كلامه، أخذها ذات مرة إلى الأحياء الفقيرة في برشلونة، أراها حقيقة المشردين في الشوارع، أراها حقيقة الأفراد الضعفاء الذين لم يستطيعوا مواكبة هذه الحياة السريعة. ليس كلهم رامبو. فيهم ضعفاء القدرات وضعفاء الاهتمامات، نحن تركناهم وتجاوزناهم. هذا غير صحيح يا شِيلا. لا بد أن نأخذ بأيديهم رغما عنهم ونسهل الحياة لهم. لا بد أن نجعل الحياة مكانا جميلا لهم. هذا دورنا وهذه وظيفتنا. المشكلة: كلنا مشغولون بأنفسنا لا نكترث بهؤلاء الضعفاء. حياتهم تعيسة: مخدرات واكتئاب. قالت شِيلا للغريب: قلبك كبير لتحمل محبة الناس.

هذه الحياة جميلة يا شِيلا. كل صباح هو يوم جميل. وكل ليل هو ليل جميل.
ما رأيك أن أنتج فيلما معك ؟.

ضحكت، أنتجُ فيلما معك ؟ وبادرها: على فكرة صوت ضحكك جميل جدا ؟!. فرقعة ناعمة ثم أجابها الغريب : نعم ننتج فيلما . إذا لا ترغبي، عرفيني بالكسندر بركلي وسأتفاهم معه.
ضحكت شِيلا وسألته !. من أين عرفت الكسندر ؟ قال لها : في فيلمه " بوني " مع الطفلة ميكو . الكسندر يفضل الأفلام ذات الطابع النفسي الانفعالي هذا الذي قرأته عنه. وعندي قصة حقيقية نريد أن نرويها للناس. أضافت شيلا سؤالا آخر: حسنا وما فيلمك ؟
لا عليكِ من فيلمي الآن. السؤال يا شِيلا: هل نحن نخدعُ الناسَ في الفن ؟! هل الفنُ صَنَعَ مجتمعاتٍ أفضل. أنا أؤمن بأن الفن هو إعادة تصوير الحقيقة.

شيلا: أشعر بأنكَ بدأتَ تؤثر فيني. وأظن لهذا السبب أحبتك فيونا يا غريب اللون.
الغريب: إنه اسم رائع غريب اللون . كلنا غريبي الألوان. سبعة مليار من البشر على الكرة الأرضية. كل واحد منهم لون مختلف. هذا جميل سيدة شِيلا.
شيلا: لماذا تناديني سيدة ؟! كأنها أرادت أن تكسر الحواجز بينهما ليتكلم عن نفسه.
الغريب: كما تفعل ابنتك بقولها سيد لون.
ابتسمت شيلا وعرفت لا طائل من نقاشه في هذا.
الغريب: أردتُ أن أقولَ شيئا لم أقله في السيارة لوجود فيونا.
شيلا: تفضل هي ليست معنا الآن .
الغريب: شعر أسود وعينان خضراء وسحنة بيضاء، جمعتي الجمالَ كله أوله وآخره .
صمتت شيلا بذهول، تغيرت عيناها كأنهما تكلمتا. رأى الغريب ذلك في عينيها. وصمت هو أيضا. عاتب نفسه : كيف قلتُ لها هذا !؟ . ساد صمت ثم خرج وتركها بمفردها ولم يكمل. مضت الأيام بلياليها ونهارها.

بعد أيام، اتصلت مديرة المدرسة لاحقا، لتشكر والدة فيونا على تقدم ابنتها الدراسي وتفوقها.
المديرة: سيدة شِيلا لقد تغيرت فيونا كثيرا، حتى صرن الطالبات يطلبن منها أن تشرح الدرس لهم بدلا من المعلمة.
شِيلا: أشكرك على هذا الثناء لابنتي سيدة روزا. في حقيقة الأمر، جئنا بمعلم جديد لها، وأظنه نفعها كثيرا، وهي أحبت طريقته في التعليم.
روزا المديرة: فيونا فتاة ذكية، يبدو كانت مشكلتها عدم حبها للدراسة، وللأسف هذا منتشر في جميع الطلاب حتى ولدي وابنتي يكرهون المدرسة. وأظنه السبب الرئيس خلف تدهور التعليم عندنا.
شِيلا: أتفق معك سيدة روزا. طريقة معلمها الجديد طريقة جديدة حتى أنا نفسي تمنيت أنني تعلمت بنفس الطريقة. انتهى حديثهما وأغلقت المديرة الاتصال. واقتربت شِيلا من النافذة لترى المعلم مع طالبته الجديدة.

كان واضعا إياها على كتفيه. انظري إلى هذه الأغصان يا فوني، وانظري إلى اتجاه أغصانها هل هي متدلية أم إلى السماء ؟ أجابته: إلى السماء. ممتاز.
الغريب: انظري في عروق الورق إلى أين متجهة ؟
فيونا إلى عكس الساق.
الغريب: جميل. قلت لك أن عينيك زيتونتان. لحظة، - أنزلها على الأرض - دعيني أراهما. إن عينيك تتغير ألوانها مع الشمس فتصير أكثر جمالا. حسنا لنواصل درس العلوم : رفعها إلى كتفه من جديد: انظري إلى لون الورقة في الوسط والأطراف ؟ سألها: لماذا في الأطراف لونها أغمق ؟
فيونا لا أعرف وأنا أيضا لا أعرف علينا أن نبحث معا.

انظري إلى الفراشة يا فوني. وسألها في أي فصل نحن ؟
فيونا : لا أعرف.
أضاف الغريب سؤالا آخر : هل هو الشتاء ؟
فيونا طبعا لا فليس ثمة ثلج.
الغريب: استدلال جيد يا صغيرتي. هل هو الربيع ؟ هل الأشجار مخضرة ؟ ما الفواكه الجديدة التي نشتريها هذه الأيام ؟
فيونا سأذهب إلى الثلاجة وأرى.
الغريب: جميل. إذن ستبحثين في الثلاجة لأنها مصدر من مصادر المعلومات. يعني لو ذهبنا إلى ثلاجات الناس وعرفنا ما فيها، سنعرف هل نحن في الصيف أم في الشتاء أم في بداية الربيع.
أجابته فيونا : صحيح .

الغريب: سؤال آخر يا جميلة : لو وجدنا دواءً للحرارة في ثلاجة ماذا يعني هذا ؟
فيونا : يعني أنَّ في البيت شخصا مريضا بالحرارة.
الغريب: أنت ذكية جدا. حسنا ولو رأينا دودة الفراشة فنحن في أية فصل ؟
فيونا : لا أعرف .
الغريب: جميل، علينا أن نبحث عن حياة الفراشة لنعرف الفصل الذي نحن فيه. آخر سؤال: هل الشجرة كالثلاجة يا فيونا : لا طبعا . وأضافت: لكن نعم تكون الشجرة كالثلاجة لأنها مصدر من مصادر المعلومات. الثلاجة تعلمنا ماذا يأكل الناس وهل فيهم مرضى، والشجرة تعلمنا في أية فصل نحن.
الغريب: أنت فتاة عبقرية !. يلومونني في حبك. ثم سألها : أتريدين استراحة أم نرسم ؟
فيونا : نستريح قليلا ثم نرسم .

الغريب: كيف أجبتي ؟
فيونا : جمعنا بين الأمرين. ولم نجعل الرغبتين متعارضتين.
سألها الغريب : هذا الجواب في أي درس ؟
فيونا : في درس طرق التفكير.
الغريب : إنك أكثر من رائعة. ستكونين الأولى على برشلونة صدقيني. المعلومات مهمة، ولكن طريقة التفكير أهم. وأنت تملكين الاثنين ومع المحبة والشغف للتعلم وهو الأهم ، ستكونين الأولى. سؤال أخير يا فوني : هل زبالة البيت مصدر من مصادر المعلومات ؟
فيونا بالتأكيد نعم؛ لأننا سنعرف ماذا رمى أهل البيت بعدما أكلوا، ومن انتهى دواءه وخفَّ مرضه.
الغريب : أنتِ فتاة خارقة وعبقرية.

أنزل العجوز فيونا على الأرض . أنا عجوز يا فوني الصغيرة. سأضع ظهري على الأرض. سؤال: هل أحتاج طاولة وكرسي لأتعلم ؟
فيونا : ليس ضروريا للتعلم وجود الطاولة والكرسي، ممكن أتعلم وأنا مستلقية على الأرض. سأنظر إلى السماء وسأنظر إلى الشجر. وستنظر عيناي في عينيَّ كيف رأت.
ذُهِل الغريب من هذا الجواب. وقام من استلقائه ؟ أعيدي ماذا قلتي ؟. وأعادتْ ما قالت : وستنظرُ عينايَ في عينيَّ كيف رأت. قال الغريب مندهشا : هذه عبارة ثقيلة جدا يا فوني، وضمها إلى صدره بقوة وبدا ينشد أنينا حزينا همهمة متألم. وستنظر عيناي في عيني كيف رأت وصار يرددها كثيرا وهو يبكي.

فيونا : حينما تئنُ بمثل هذا أشعر بحزن في نفسي. لا تقولي سيد. حسنا سيد لون.
من خلف النافذة حدثت شِيلا نفسها: طريقته ممتعة في التعلم !. كلنا يمكننا أن نفعل مثله لكننا لا نفعله. فليس ثمة أمر غريب في طريقة التعليم هذه.

نبدأ الرسم: ماذا سترسمين يا فوني ؟ سأرسمُ إحساسي، ومشاعري وكيف أحسُ بالأشياء في قلبي وليس كما تراها عينيَّ وتسمعها أذناي فقط. انظري يا فيونا في رسمتي جعلتُ شعرك بنفسجيا . وجعلت عينيك شاطئا. قالت فيونا : أنا أشعر بك ولكنني لا أراك في الورقة. صمتَ لحظة، مضت دقيقة، دقيقتان، ثلاث. ثم أدار رأسه نحوها وسألها: هل سأختلفُ باختلاف من يضعني ؟. أجابته: اعتقد هذا. ضعيني أنتِ. رسمت قلبا مبتسما.

الغريب : شكرا على مشاعرك أيتها الفنانة العظيمة. كان سؤالك صعبا أيها الملاك الصغير ! فكرتُ في نفسي، أين أنا ؟ سأخبرك سرا يا فتاتي الصغيرة. أحبُ أن أرسم نفسي قاربا مكسورا.
فيونا : لا .. لا لستَ قاربا مكسورا. بل قاربك جميل جدا. علمتني أشياءَ مثيرةً وكثيرة وسأبقى مبحرة معك طول عمري. رد الغريب مبتهجا: يا لعمرك الجميل، صرتِ مثل والدتك ممثلة رائعة. ضحكتْ وصارت تركضُ وتلحقُ القطتين وتطعمُ الطيور. وهو مستلقيا بظهره على ظهر العشب الأخضر. نعم صحيح: إنَّ سرَّ جمالُ الأطفال: عدم تصنعهم، وعدم حاجتنا للتصنع أمامهم.

شعرَ بظلٍ يقتربُ منه وهو مستلقٍ ، فاعتدل في جلسته فرأى شيلا فقرَّبَ لها كرسي الخيزران لتجلس عليه وجلس أمامها ؛ فهو ليس مع الصغيرة ليكون بحريته الكاملة. أهلا سيدة شِيلا. لا زلت تناديني سيدة. حسنا يا شِيلا. اتصلت مديرة المدرسة وأخبرتني عن تقدم فيونا الدراسي وأنا سعيدة جدا بهذا. ففي فترة قصيرة تغيرت كثيرا. هذا إنجاز وأريد أن أشكرك عليه. سأكتب شيكا بخمسة ألاف مكافأة لك ؟.

الغريب: لا تفعلي ولن أقبل. يا سيدتي أنتِ لم تفهمني بعدُ. أنا أفعلُ هذا لأنني أريده، وليس لأجل الخمسين يورو أو الخمسة ألاف. أنا لا أريد مالا ولا اكترث له ولا احتاجه أصلا. فشاي بحليب وقطعة كيك تكلف يوروين فقط. اعترضت شِيلا: لكنك تحتاج إلى أمورٍ كثيرة !. عندي كل شيء ولا أريدُ المزيد .

استغلَ الغريب الفرصة وغيَّر الحديث: بدلا من الخمسة ألاف، نريدك أن تخرجين المسرحيات الثلاث التي ستكون في الحفل الذي سندعو فيه صاحبات فيونا في المدرسة ومعلماتها ومديرتهم. ضحكت شيلا بصوت عال وأبدلت وضع ساقها إلى الساق الأخرى وبدأت تهزهما : معذرة مسرحية ؟!. ألتفت إليها الغريب بقوة: نعم وعندي المسرحيات مكتوبة، بقي تمثيلها فقط. وليتك تدعين الكسندر إلى الحفل.
ضحكت شيلا بصوت أعلى: الكسندر بركلي. نظر إليها باستغراب وقال لها: ضحكك يسرني لكنه يثير دهشتي.
شيلا: من تظنُ نفسك لتكتبَ مسرحية .
الغريب: هلاَّ غيرتي سؤالك وقلتي: ممكن أن تريني نص المسرحية ؟
شيلا: حسنا ممكن أن تريني نص المسرحية ؟. بكل سرور، وأخرج مسرحيته من داخل صدره خلف فنيلته الداخلية . وعلقَّ الغريب على الأوراق وهو يناولها إياها : العنوان الأول: طفل على النهر. والثانية : الحروف الراقصة والثالثة : مدرستي حديقتي. ولا ادري هل سيسعفنا الوقت لعرض الثالثة. وما اسم المؤلف ؟ سألت شِيلا. أجابها: أحتاج أن أبحث. قلتَ إنها من تأليفك !. لم أقلْ إنها من تأليفي.
بادرته شيلا : لماذا أنتَ تهربْ من نفسك ؟.

صمت ونظر إليها بصمت ثم قام من كرسيه وأعطاها ظهره ومشى إلى باب القصر خارجا. وقال لفيونا سأرجع غدا. ذاكري جيدا. لحقته فيونا : عدني أنك سترجع. أعدكَ بأنني سأرجع. وقولي لوالدتك أن تستعد للمسرحية واستعدي أنتِ أيضا. سنقيم حفلة لتفوقك في المدرسة، وسندعو صديقاتك وأخبرها بكامل القصة.

أظنني أخطأت العبارة. هو لا يريد أن يعرفه أحد، دعيه وشأنه. لماذا هذا الفضول الأحمق. دعيه وشأنه. كانت شِيلا تحدث نفسها. قبل أن يصل إلى باب القصر رجع إليها: سيدة شِيلا: نعم.
لون الشانل (ما كانت تلبسه) ساحر جدا: أزرق ملكي على لونك في فصل الربيع والشمس مشرقة، وفي وسط هذا الزرع على كرسي من الخيزران. أنت جميلة جدا يا شِيلا. أظن بأن الرجالَ ليس لهم أعين ، أن تركوا هذا الجمال وحده . هل تقبلين مني اقتراحا ولو تجاوزتُ فيه حدودي ؟ تفضل بكل سرور وهي مسرورة بثنائه. في ليلة الحفل ليكن فستانك أسودا طويلا يغطي صدرك وكتفيك وذراعيك. ابتسم ابتسامة جعلتها أيضا تبتسم ثم نحن ليس في حفل الأوسكار. أجابته: شكرا على الاقتراح سأنظر في الأمر. ثم رجع إلى طريقه وواصل الخروج.

هذا رجل ذو ذوق راق؛ يعرف كيف يتكلم مع النساء. لا أظنه فقيرا أو متشردا، بالتأكيد هو غير ذلك. ليس عليَّ الحذر منه، بل عليَّ أن اقترب منه. لماذا هذا الرجل يترك أثرا عند كل أحد !. حتى الخدم كلهم أصحابه ويحبونه ويساعدهم في أعمالهم. والسائقين والمزارع وفيونا وأنا !؟ أنا ؟. مستحيل.
كان الغد يوم عطلة. وسمعوا ضجيجا في الضحى في حديقة القصر. أطلت شِيلا من نافذتها من الدور الثاني، ورأت النجارين يصنعون منصة مسرحية. ويضعون الكراسي أمام المنصة. ثم ركضت فيونا إلى صاحبها العجوز وسألته وهي تدير أصابع يدها مستفهمة: ما هذا ؟ هذا لمسرحيتك أيتها الأميرة. نريد أن ندعو صاحباتك ليتدربوا على المسرحية . أأنت جاد ؟ نعم يا صغيرتي جاد بلا تردد. وقولي لوالدتك أن تدعوَ المديرة والمعلمات وعلينا أن نحدد تاريخ الحفل. ركضت الصغيرة إلى غرفة أمها لتخبرها هذه المعلومات.
لا زال العمال يشتغلون في تجهيز ما يلزم للمسرحية. كانت منصةً بسيطة بدون تكلف. منصة خشبية ستارتها الخلفية بيضاء لعرض الفيديو، ومن الجانبين ثلاث درجات للداخل وللخارج من الممثلين. استأجر سماعتين متوسطتي الحجم لصوت الممثلين للتجريب والاختبار. وضع ميكرفونات حول المسرح لالتقاط الصوت. عليَّ أن أكون مستعدا. فيونا ... فوني نادى عليها. جاءته مهرولة: نعم سيد لون. لا تقولي سيد. حسنا سيد لون. هل عندكم بروجكتر ؟ لحظة سأسأل أمي. رجعت مسرعة نعم عندنا . سيجيء به إدوارد من المخزن لحظات لو سمحت.

نادى الغريب إريك: نريد توصيلات كهربائية هنا لجهاز الصوت والبروجكتر والمؤثرات. أجابه إريك: سيكون جاهزا غدا. فوني : نعم، هل تأذن والدتك أن نحفر أنبوبا صغيرا هنا لمد الأسلاك ولنضعَ لمبات صغيرة على الشجرة هذه ؟. رجعت مهرولة من عند أمها : نعم موافقة.

بدأت الحفلة وكانت ليلة رائعة لا تُنسى. كانت المسرحية الأولى: طفل على النهر. أطفال يعبرون جسورا متهالكة وخطرة ليتعلموا. أحدهم قرصه ثعبان وأسعفوه. وطفلة مشت على الثلج بين الأنهار المتجمدة، وطفلة تسلقت الجبال. كل هؤلاء كافحوا ليتعلموا. وفي الخلفية كان يعرض البروجكتر صورا ومشاهدَ لأناس حقيقيين في جنوب أمريكا وأفريقيا وآسيا في طرقهم الخطيرة إلى مدارسهم.

المسرحية الثانية: الحروف الراقصة، كانت ظريفة جدا، لبسن الفتيات الملابس على هيئة الحروف وصارت تتجمع وتفترق مع نفسها. أنا حرف الباء وأنا حرف اللام وأنا حرف الكاف إلى آخر الحروف. تلتصق الحروف بجانب بعضها بأشكال مختلفة. مرة بأسماء العلماء ومرة صارت بأسماء المعلمات وأخيرا باسم مديرة المدرسة. لم تعرض المسرحية الثالثة؛ لضيق الوقت، وجعلوا محلها تقديم الطعام لتأخر الوقت. صوروا الحفل بالفيديو وأرسلوه بعد ذلك إلى أمهات الطالبات وسررن جدا وشكروا السيدة شِيلا. كانت أمسية رائعة. شعر الجميع بسعادة الحفل.

قالت مديرة المدرسة أثناء عرض المسرحيات للسيدة شِيلا: تعجبت من وجود البروفسور آلن وود. سألتها شيلا : من آلن وود ؟ ذاك الرجل صاحب الجاكيت القديم. هل هو بروفسور ؟ نعم إنه أستاذ الفيزياء والرياضيات في جامعة برشلونة، لكنه فقد ذاكرته بسبب الحادث الذي ماتت فيه زوجته وابنته قبل سبع سنين. قالت شيلا في نفسها الآن بدأت تتضح الأمور.

خرج الجميع مسرورين. اقتربت شِيلا ونادت: بروفسور آلن. لم يلق لها بالا وكأنه لم يسمع شيئا. كان منشغلا بفصل الأسلاك والأجهزة، وجمع الكراسي مع العاملين. ولكنه من خلف الكراسي كان يرمقها وخاصة بعد ندائها له بالبروفسور. إذن عرفتْ من أنا، فأظنُ رحيلي قد اقترب بأكثر مما توقعت، ولا زال يحدث نفسه وهو يعمل، كانت بفستانها الطويل الأسود كأنها قمرٌ في سماء لكنه على الأرض. إنها فعلا جميلة جدا.

كانت تشعر بأن عينيه لم تفارقها طوال الحفل. المرأة الجميلة تحرك عينيها لتعرف من يقدر جمالها. هذا سِرٌ من أسرار الجميلات. اقتربَ منها سيدة شِيلا: أنتِ جميلة جدا. لكنها أسرعت بسؤالها: بروفسور آلن هل فقدتَ ذاكرتك فعلا ؟. انصرفَ عنها كأنها سألتْ شخصا آخر.

أمضت الليل تبحث عنه وعن صوره وعن فيديوهاته في النت وتساءلت كيف لم انتبه إلى هذا. خدعنا بمنظره المخادع. سأسأله في الصباح. أسهرني الغريب هذه الليلة. وجَدت شِيلا في الصباح رسالة مع إدوارد من الرجل الغريب: فتحت الظرف وقرأتْ:

السيدة شِيلا :

صباح الخير

أشكرك لوقوفك معنا لإنجاح الحفل. أَوَقَد قد تم، فهمتي انتهت هنا أيضا. عرفني الناس كثيرا في الجامعة وكان هذا يتعبني كثيرا. لا أحب أن يعرفني أحد. كنتُ دائما احتاج أن أعرفَ نفسي. بعد حادث أسرتي، كان ذلك التوقيت أفضل توقيت. استقلتُ من الجامعة. أعطيتُ الطلاب ما عندي ولم يكن عندي مزيدا إلا جزيئات في تصوري لم تكن مهمة. فغيرتُ مظهري، بدأ الناس يعاملونني على حقيقتهم وليس وفق درجتي العلمية . فشعرتُ بسعادة مع الناس، لم أكن أشعرها للمسافات الموهومة العلمية السابقة. بعض الأحيان من الأفضل ألا تعرف الحقيقة، بل تجاهلها هو الأفضل.

لا أحبُ أن أعيشَ التناقض. رأيتُ فيلمك الأخير (وحيدة Alone). كان مؤثرا جدا. حتى أنه أبكاني لأنه لمسَ حياتي. لاحقا، شعرتُ بتناقض في نفسي وصرتُ أفكر: كيف يفرح الممثل بثناء الناس على دوره الحزين. كيف يصير الحزن سرورا. هذا صعب عليَّ أن أتصوره. ربما أحتاج بعض الوقت لأفهم هذا. لأوضح أكثر، مثلاً: لوحات حرب الثلاثين عاما بين الكاثوليك والبروتستانت في القرون الوسطى. هي لوحات جميلة وتسجيل تاريخي مهم، تُعجِبُ كل من يراها. لكنني تضايقت من نفسي متسائلا : كيف سررتُ باللوحة !، وداخلها قتل وضحايا بعشرات الألاف. هذا أمر عجيب جدا. أن أشعر بسرور على لوحة قتل.

كتبت هذه الرسالة لأخبرك برحيلي الليلة إلى دولة أسيوية لنبني جسورا للأطفال الذين يعبرون النهر. لم يغب هذا الجسر عن مخيلتي. سأتذكرك دائما بذلك الفستان الجميل الأسود. إنك من أجمل النساء.

فيونا تعلم بسفري وأقنعتها بقبول الفكرة. نحن مثلنا المسرحية لنصنع الحقيقة ونغير الواقع، لا لنتسلى فقط. كانت تحتاج فيونا أن تتعلم كيف تتعلم. كان ينقصها الطريقة. وقد أبدت عبقرية في تعلمها.

منذو ولادتنا وعبر طفولتنا وخلال دراستنا، كنا غالبا شخصا صنعه الآخرون - ولا نستطيع أن ننفكَ عن هذا - وعلَّمنا التعليم أنْ نصيرَ موظفين. لأصير هو وليس أنا. مللتُ هو يا شِيلا. تعاملَ الطلاب معي في الجامعة مع وظيفتي وليس أنا . البروفسور آلن. البروفسور هو . أنا آلن.

البروفسور وظيفةٌ لكسب الرزق ، والتعلم والتعليم حياتي الذي أجدُ فيه نفسي لكنه ليس هويتي، ليس أنا. وكذلك أنتِ. أنت الممثلةِ شِيلا. لكن من هي شِيلا ؟. إنني أبحث عن أنا. وهي ألصق المخلوقات بي، وأنا أجهل الناس بها. أظن أغلبنا كذلك إن لم نكن كلنا. نحن من صَنَعَنا الإعلام والتسويق.

إذا غضب رئيسنا من رئيس الصين، غضبنا معه. وإذا رضي رضينا. من الذي يلعب بنا ؟!. من الذي يلعب بعقولنا ؟ لماذا العالم والأرض على هذه النحو بهذا التلاعب الرخيص. قراراتنا التي اتُخذت. من اتخذها هو أم أنا ؟.

هذه قضية كبرى يا عزيزتي. معنى وجودي، وحقيقته، هذا الكون العظيم من صنعه ؟ ولماذا صنعه ؟ لا أظن من صنعني غشني؛ أعطاني من الحواس لأرى الألوان، وأسمع الأصوات، وأتذوق الأذواق، وألمس السطوح، وأشم الورد والعطور. ما سِرُّ الخلق !.

انظري إلى نفسك الآن يا شِيلا، بعدما عرفتي بأنني بروفسور. هل تغيرتْ نظرتكِ عني ؟. هل الذي تغيَّرَ أنا أم وظيفتي ؟. أنا واثقٌ بأنني تغيرتُ عندكِ إلى أفضل. لا لأنني أنا، بل لأنني هو البروفسور . هل وضحتُ فكرتي ؟ لِمَ كنتُ أقلَّ وأنا أنا، وصِرتُ أرفع وأنا هو ؟!. معذرة إذا أزعجتك بهذا.

تركت لك هدية قرب المدفأة: قرآنا. ساعدني القرآن كثيرا للإجابة على هذه الأسئلة. لذا تركته لك عند المدفأة؛ لأنه دفء حقيقي. لم أر بحياتي كتابا مثله.

وأخيرا، أرجو لك ولفيونا حياة سعيدة دائمة. كنتِ في غاية واللطف والكرم معي.

لن أنساكم.

التوقيع: آلن